SOSYAL BİLİMLER AKADEMİ DERGİSİ
ISSN: 2636 - 7599

Sosyal Bilimler Akademi Dergisi / The Journal of Social Sciences Academy

Araştırma Makalesi / Research Article

Kasım / November 2021 Cilt / Volume: 4 Sayı / Issues: 2 Sayfalar: 188-208

Ismail KALASH*

الاقتصاد في عهد صلاح الدين الأيوبي

SELAHADDÎN EYYÛBÎ DÖNEMINDE İKTISAT

ECONOMY IN THE ERA OF SALAH AD-DIN

الملخص:

تناول البحث الحالي النشاط الاقتصادي في عهد صلاح الدين الأيوبي من الناحية التجارية والصناعية والزراعية، والموارد المالية ونفقات الدولة الأيوبية. وأظهرت نتائج الدراسة أن اقتصاد الدولة الأيوبية تمتع بالاستقرار والازدهار. حيث اهتم صلاح الدين الأيوبي بالتجارة الداخلية، وعمل على تأمين التسهيلات اللازمة للتجار وتوفير الأمن والحماية لهم ولأموالهم، واهتم بضبط الأسواق ومراقبتها، واهتم أيضاً بالتجارة الخارجية وعقد المعاهدات التجارية مع أهم المدن الأوروبية. وعلى الصعيد الزراعي، فقد تم تشجيع الزراعة والاعتناء بوسائل الري، وحماية الفلاحين من ظلم الاقطاعيين. وأمّا على مستوى الصناعة، فقد تميز العصر الأيوبي بالازدهار الصناعي وتنوع الصناعات والحرف. وأمّا موارد الدولة الأيوبية، فقد كانت متنوعة ومن أهم مصادرها الزكاة والخراج والضرائب التجارية. وعمل صلاح الدين على إلغاء كافة الضرائب غير الشرعية التي كانت مفروضة في البلاد التي دخلها. ووجّه صلاح الدين معظم موارد الدولة إلى الإنفاق على المؤسسات التعليمية كالمدارس والمساجد والخوانق. وتم أيضاً الاهتمام بالعلوم الطبية والانفاق على البيمارستانات. وتم تخصيص مبالغ كبيرة للجيش وبناء التحصينات وتعمير الأسطول.

الكلمات المفتاحية: اقتصاد، صلاح الدين الأيوبي، التجارة، الزراعة، الصناعة، الموارد المالية والنفقات.

Öz

Bu çalışmanın amacı, Selahaddîn Eyyûbî döneminde devletin mali kaynakları ve harcamaları ile iktisadi (ticari, zirai, sanayi) faaliyetlerinin incelenmesidir. Selahaddîn Eyyûbî, iç ticaretle ilgilenerek tüccarların ihtiyaç duyduğu imkanları ve mallarının güvenliğini sağlamanın yanı sıra, pazarların izlenmesi ve kontrol edilmesine katkıda bulunmuştur. Dahası dış ticaret ile ilgilenerek önemli Avrupa şehirleri ile ticaret anlaşmaları yapmıştır. Ziraat alanında, zirâî faaliyetlere ve sulama yöntemlerine özen gösterilmiştir. Ayrıca çiftçiler derebeylerin adaletsizliğinden korunmuştur. Sınai alanında, Selahaddîn Eyyûbî dönemi sanayi refahı ve çeşitli sanayi ve el sanatları ile ön plana çıkmıştır. Selahaddîn Eyyûbî döneminde devletin mali kaynaklarının başında zekât, haraç, ticari vergiler ve diğer kaynaklar gelmektedir. Selahaddîn Eyyûbî fethedilen şehirlerde uygulanmakta olan İslâm hukukuna aykırı vergileri kaldırmıştır. Devletin mali kaynaklarını eğitim kurumları (okullar, camiler, tekkeler, zaviyeler), bimaristanlar, ordu, tahkimat ve filo gibi alanlara tahsîs etmiştir. Sonuç olarak, Eyyûbî devleti ekonomisinin istikrarlı ve müreffeh olduğu ortaya çıkmıştır.

Anahtar Kelime: İktisat, Selahaddîn Eyyûbî, Ticaret, Ziraat, Sanayi, Mali Kaynaklar ve Harcamalar.

Jel Kodları: B3, B30.

Abstract

* Dr., Dicle Universitesi, SBE, İşletme ABD, ismailkalash2@gmail.com, ORCID: 0000-0002-0674-0136

Gönderim Tarihi: 03.01.2021 Yayına Kabul Tarihi: 06.09.2021 Yayın Tarihi: 08.11.2021

The aim of this study is to examine the financial resources and expenditures, and the economic (commercial, agricultural, industrial) activities of Ayyubid state. The results of the study showed that the economy of Ayyubid state was stable and prosperous. Salahaddin had interested in domestic trade, and contributed to the monitoring and control of the markets, and provided the security and safety to traders and their goods and funds. He also interested in the foreign trade and engaged in trade agreements with major European cities. At agricultural level, the agricultural activities and irrigation systems had been supported. In addition, farmers had been protected from feudal injustice. At the industry level, the Salahaddin era was characterized by industrial welfare, and the industrial and crafts diversity. The financial resources of Ayyubid state were zakat, tribute, commercial taxes and other sources. Saladin abolished the taxes, that are against Islamic law, in the conquered cities. The financial resources of the state had been allocated to build educational institutions (schools, mosques, Dervish convents), hospitals, army, fortifications and fleet.

Key Words: Economy, Salahaddin, Trade, Agriculture, Industry, Financial Resources and Expenditures.

Jel Codes: B3, B30.

المقدمة

يتناول هذا البحث النشاط الاقتصادي في زمن صلاح الدين الأيوبي، حيث شهد العالم الإسلامي النمو والازدهار الاقتصادي على مستوى التجارة والزراعة والصناعة، مما يدل على أن صلاح الدين الأيوبي لم يكن رجل عسكري فقط، وإنما كان بالدرجة الأولى رجل دولة استطاع توحيد الأمة الإسلامية، ووضع لها الأسس المتينة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والعلمي والعسكري، والذي بدوره ساهم إلى حد كبير في تحقيق الانتصارات وفتح البلدان، ومواجهة العدوان الصليبي وكسر شوكته وتحرير بيت المقدس.

وتأتي أهمية هذا البحث كونه يتناول حقبة تاريخية مهمة في العالم الإسلامي، سبقها حالة من التشتت والانقسام والصراعات الداخلية من جهة، والعدوان الصليبي من جهة أخرى. وبالرغم من كل هذه الظروف الصعبة استطاع صلاح الدين الأيوبي توحيد الجهود ومتابعة مسيرة السلجوقيين والزنكيين، وبناء دولة قوية موحدة، وتأسيس قوة عسكرية ضاربة يدعمها اقتصاد مستقر ومزدهر.

لقد تم الاعتماد في هذا البحث على المنهج التاريخي والوصفي، والمصادر التاريخية والمؤلفات والأبحاث المرتبطة بالموضوع لتحقيق أهداف الدراسة، والمتمثلة في بيان الأنشطة الاقتصادية من الناحية التجارية والصناعية والزراعية، والموارد المالية ونفقات الدولة الأيوبية.

تم تقسيم بقية هذه الدراسة على الشكل التالي: القسم الثاني يعرض النشاط التجاري والمراكز التجارية والأسواق والتجارة الخارجية. القسم الثالث يتناول الأنشطة والمحاصيل الزراعية ونظام الاقطاع في الدولة الأيوبية. القسم الرابع يعرض النشاط الصناعي والحرفي وأنواع الصناعات ومراكز الصناعة في العصر الأيوبي. القسم الخامس يُبين إيرادات الدولة الأيوبية، وأوجه الإنفاق المتمثلة في التعليم والصحة والعمران والجيش والتحصينات. وتم أيضاً التعريف بالنقود الأيوبية والمشاكل النقدية التي واجهتها الدولة الأيوبية. وتنتهي الدراسة بخاتمة تعرض أهم النتائج المستخلصة.

1- النشاط التجاري

1-1- المراكز التجارية

ساهمت الوحدة بين بلاد الشام ومصر في عهد الدولة الزنكية في تنشيط التجارة. وزاد حجم العمليات التجارية وتوفر الأمن في المنطقة بعد أن استعاد صلاح الدين الأيوبي حصني الكرك والشوبك من سيطرة الصليبيين.[1] وقد أدى انضمام بلاد الشام والحجاز وغيرها من الأقاليم إلى الدولة الأيوبية إلى زيادة المبادلات التجارية بين هذه الأقاليم.[2] هذا وإن طرق المواصلات قد توسعت بهدف نمو التجارة وتسهيل نقل البضائع من منطقة إلى أخرى وهذه الطرق هي، أولاً: طريق الرقة، بالس ومنها تُحمل السلع والبضائع التجارية الواردة من مصر والشام إلى بغداد، ويبدأ الطريق الثاني ببغداد ماراً بمدينة تكريت، فالموصل، ثم نصيبين، سنجار، دارا، ماردين، دنيسر، رأس العين، حران، بزاعة، حلب، قنسرين، حماه، حمص ثم ينتهي بدمشق، وربط القسم الشمالي من الشام بمصر، طريقاً ثالثاً يبدأ بالكرك ماراً بغزة ومنتهياً بمصر.[3]

لقد شكلت التجارة عصب الحياة الاقتصادية لمصر في العصر الأيوبي، حيث كانت مصر مركزاً مهماً لتجارة العبور بين الشرق والغرب بفضل موقعها الجغرافي المتميز من خلال إشرافها على موانئ البحر الأحمر واتصالها بالبحر المتوسط.[4] وكانت القاهرة من المراكز التجارية المهمة بين البحر المتوسط الذي تقع عليه الإسكندرية ودمياط، والبحر الأحمر الذي تقع عليه عيذاب والسويس.[5] وازدهرت القاهرة نتيجة توافد التجار الأجانب عليها، وساهمت الدولة في توفير احتياجات التجار من الخدمات والحماية والأمن.[6] وكانت القاهرة أيضاً نقطة انطلاق قافلة الحج المصري، ومحطة تجارية في طريق قافلة الحج المغربي، وأصبحت القاهرة مركز تجمع السلع وتوزيعها،[7] حيث تُصدر العديد من المنتجات إلى الشام مثل الأنطاع[8] المستحسنة وحقائب الجلد ومصنوعات أخرى. وأما على مستوى الصادرات الزراعية فقد كان قصب السكر من أهم المواد الغذائية التي كانت تُصدر من مصر إلى الحجاز والشام، حيث لعب الازدهار الزراعي في مصر دوراً مهماً في تشكيل الفوائض الغذائية وتصديرها.[9]

وأمّا دمشق، فقد ازدهرت فيها الحياة الاقتصادية في العصر الأيوبي نتيجة مجاورتها للدولة اللاتينية التي تأسست في فلسطين عقب الحرب الصليبية الأولى، حيث ترسخت العلاقات التجارية بين هذه الدولة ودمشق لاسيما في أيام الهدنة والسلم. وكانت دمشق من المراكز الاقتصادية المهمة في الشرق، بوقوعها على طريق القوافل الآتية من الهند وفارس والعراق، تحمل بضائع هذه الأقطار إلى الثغور الشامية التي غصت بتجار البندقية وبيزه وجنوه ومرافئ فرنسا الجنوبية.[10] لقد ساهمت الدولة الأيوبية في تنشيط الحركة التجارية في بلاد الشام من خلال توفير الأمن والحماية للتجار وأموالهم، وتأمين سهولة الانتقال من مكان لآخر. وساهم أيضاً الازدهار الصناعي وازدهار الأسواق في تنشيط التجارة في بلاد الشام.[11]

لقد كانت مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف من أهم المراكز التجارية في الحجاز في العصر الأيوبي. حيث شكلت مكة المكرمة محطة تجارية مهمة للقوافل القادمة إليها من اليمن قاصدة الشام أو العكس. ومن العوامل الأخرى التي ساهمت بشكل كبير في

---

[1]- سهيل زكار- أمينة بيطار، *تاريخ الدولة العربية في المشرق من السلاجقة حتى سقوط بغداد* (دمشق: جامعة دمشق، 1998)، 292.

[2]- عدنان محمد فايز الحارثي، *عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي* (القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 1999)، 219.

[3]- أحمد عبد العزيز محمود، *إجحاف بحق المجاهد صلاح الدين الأيوبي رجل عصره* (أربيل: مكتب التفسير للنشر والاعلام، 2010)، 260.

[4]- فوزي خالد علي الطواهية، *الحياة الاقتصادية في مصر في العصر الأيوبي:* 567-648 هـ / 1171-1250 م (عمان: الجامعة الأردنية، رسالة دكتوراه، 2008)، 135.

[5]- الطواهية، *الحياة الاقتصادية*، 157.

[6]- محمود، *إجحاف بحق المجاهد صلاح الدين الأيوبي*، 260.

[7]- الطواهية، *الحياة الاقتصادية*، 157.

[8]- الأنطاع: جمع نطع وهو البساط من الجلد. الحارثي، *عمران القاهرة وخططها*، 219.

[9]- الحارثي، *عمران القاهرة وخططها*، 219.

[10]- محمد ياسين الحموي، *دمشق في العصر الأيوبي* (دمشق: مكتبة النشر العربي، 1946)، 41.

[11]- أمين أبو دمعة، *الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي* (دمشق: جامعة دمشق، رسالة ماجستير، 1988)، 180.

الازدهار التجاري في مكة المكرمة هو حركة البيع والشراء في موسم الحج، وقربها من ميناء جدة الواقعة على ساحل البحر الأحمر، والقوافل التجارية القادمة من اليمن والشام.[12]

وأما اليمن، فقد حرص الأيوبيون على تنشيط الحركة التجارية وزيادة التبادل التجاري بين المناطق اليمنية من خلال توفير الأمن في معظم مناطق اليمن وحماية طرق الحجاج والتجار. واهتمت الدولة الأيوبية بشكل خاص بالموانئ اليمنية وخاصة ميناء عدن باعتباره من المصادر المهمة لموارد الدولة، حيث اهتموا بتحصينه وإنشاء الأسواق والخانات فيه.[13]

1-2- الأسواق

كانت الأسواق الأيوبية زاخرة بمختلف السلع والبضائع، ولعبت دوراً مهماً في تنشيط التجارة الداخلية والخارجية. وكانت هذه الأسواق تُبنى بشكل يسهل فيها العمل في النهار والحماية في الليل بأن جعلت أبوابها عريضة مصفحة بالحديد وزودت بسلسلة من المناور لتمدها بالشمس والهواء. أما الدكاكين فكان بعضها ذات أبواب خشبية تغلق بواسطة الحبال وبطرق تقليدية.[14] وتميزت الأسواق بطابع التخصص، بحيث يُجعل لأهل كل صنعة سوقا يختص بهم، وتعرف صناعتهم.[15]

وقد ازدهرت وتوسعت أسواق القاهرة في العصر الأيوبي وبرزت أسواق جديدة للسلاح والملابس والأطعمة وغير ذلك. ومن أهم المتغيرات التي طرأت على أسواق القاهرة في ذلك العصر هو تخصص الأسواق ببيع سلع محددة،[16] مثل سوق المرحلين (لتجهيز الإبل)، وسوق الوزازين والدجاجين (لبيع الإوز والدجاج والعصافير)، وسوق الشماعين (لبيع الشمع)، وسوق البزازين (لبيع الأقمشة)، وسوق الحصريين (لبيع الحصير)، وسوق الصنادقيين (لبيع الحُلي)، وسوق الكعكيين (لصناعة الحلوى والكعك)، وسوق الورق وغيرها من الأسواق،[17] ووجدت أيضاً أسواق أخرى في مدن مصر مثل الإسكندرية والجيزة وقوص وتنيس.[18] وقد ذكر شيخ المؤرخين المقريزي عن أسواق مصر والقاهرة وقال "وقد كان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق شيء كثير جداً قد باد أكثرها وكفاك دليلاً على كثرة عددها أن الذي خرب من الأسواق فيما بين أراضي اللوق إلى باب البحر بالمقس اثنان وخمسون سوقاً أدركناها عامرة فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتاً وهذه الخطة من جملة ظاهر القاهرة الغربي فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر".[19]

وأما أسواق دمشق فكانت أيضاً متخصصة وحافلة بكافة أنواع السلع والبضائع.[20] ومن هذه الأسواق: سوق الذهب وسوق الصاغة وسوق النحاسين وسوق الوراقين وسوق السلاح وسوق النجارين وسوق الخيل،[21] وسوق السراجين وسوق الغنم وسوق الفاكهة وسوق القمح وغيرها.[22] وذكر الرحالة ابن جبير أسواق دمشق في رحلته زمن صلاح الدين الأيوبي وقال "وأسواق هذه البلدة

---

[12]- عائشة عبد الله عمر باقاسى، *بلاد الحجاز في العصر الأيوبي* (جدة: جامعة الملك عبد العزيز، رسالة ماجستير، 1980)، 81.

[13]- فاروق أحمد حيدر، "المؤسسات التعليمية في عهد الدولة الأيوبية في اليمن"، *مجلة الدراسات الاجتماعية* 16 (2003)، 56.

[14]- أبو دمعة، *الحياة الاقتصادية*، 189.

15- عبد الرحمن بن نصر الشيزري، *نهاية الرتبة في طلب الحسبة* (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1946)، 11.

[16]- الحارثي، *عمران القاهرة وخططها*، 327.

[17]- الشيخ الأمين محمد عوض الله، *أسواق القاهرة منذ العصر الفاطمي حتى نهاية عصر المماليك* (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2014)، 33-38.

[18]- أزهار غازي مطر، *الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر في ظل الدولة الأيوبية: 567-648 هـ/1171-1250 م* (بغداد: جامعة بغداد، رسالة دكتوراه، 2013)، 36-38.

[19]- تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي، *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار* (بيروت: دار صادر، د.ت)، 94/2.

[20]- زكار - بيطار، *تاريخ الدولة العربية في المشرق*، 308.

[21]-ناصر محمد علي الحازمي، *الحياة العلمية في دمشق في العصر الأيوبي: 569-659هـ/1173-1260م* (مكة: جامعة أم القرى، رسالة ماجستير، 1421هـ)، 39.

[22]- علي بن الحسن بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر، *تاريخ مدينة دمشق* (بيروت: دار الفكر، 1995)، 290/2، 310، 355، 362.

من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وضعاً. ولها أيضاً سوق يعرف بالسوق الكبير يتصل من باب الجابية إلى باب شرقي".[23] ووصف المقدسي أسواق دمشق وقال "أكثر أسواقها مغطاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن، وهو بلد قد خرقته الأنهار، وكثرت به الثمار، مع رخص الأسعار".[24] وأما حلب فقد تميزت بموقعها الجغرافي بين مجموعة من المدن المهمة، وبرزت كأحد المراكز التجارية الرئيسية التي يفد إليها أهالي المناطق المجاورة وشكلت لؤلؤة المناطق الشمالية ومركزاً رئيسياً للأسواق التجارية في المنطقة. وتميزت أسواق حلب بالتخصص في سلع محددة.[25] مثل سوق الابرية (لأشغال الإبرة)، وسوق البز (القماش)، وسوق الخشابين، وسوق الخيل، وسوق السلاح، وسوق الصياغ (لصنع الحلي)، وسوق العطر، وسوق العطارين (تباع فيه أنواع العطور والصابون المطيب والنباتات الطيبة الرائحة وأنواع التوابل)، وسوق النطاعين وغيرها من الأسواق.[26] وذكر ابن جبير أسواق حلب في رحلته وقال "وأما البلد فموضوعه ضخم جداً، حفيل التركيب، بديع الحسن، أسواقها متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط[27] صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنيّة، وكلها مسقّف بالخشب، فسكانها في ظلال وارفة. فكل سوق منها تقّيد الأبصار حسناً وتستوقف المستوفز[28] تعجباً".[29] ووصف لنا العالم والإمام زكريا بن محمد القزويني سوق الزجاج في حلب وقال "ومن عجائبها سوق الزجاج، فإن الإنسان إذا اجتاز بها لا يريد أن يفارقها، لكثرة ما يرى فيها من الطرائف العجيبة والآلات اللطيفة تحمل إلى سائر البلاد للتحف والهدايا".[30] وإلى جانب الأسواق الكبيرة، انتشرت في حلب أيضاً السويقات، والسويقة تصغير للسوق، وهذه السويقات تخدم أصحاب الحارات وساكني المحلات المختلفة في المدينة.[31]

لقد ارتبطت بالأسواق منشآت أخرى مثل الفنادق والخانات والقيسريات بهدف خدمة التجار وتسهيل عملهم وتجارتهم. وكان الفندق عبارة عن نُزل يتألف من عدة طوابق، يتضمن الطابق الأرضي الدكاكين والمخازن التي تطل على فناء كبير لتعبئة وتفريغ البضائع، وأما الطوابق العليا فقد خُصصت لإقامة التجار.[32] وأما الخان،[33] فهو عبارة عن مبنى كبير يتضمن حوانيت ومخازن للبضائع بالإضافة إلى فناء كبير يُستخدم كمأوى للتجار. وبُنيت بعض الخانات لأهداف خيرية، كإيواء أبناء السبيل والمسافرين بدون أجرة.[34] وقد بنى صلاح الدين الأيوبي الخانات في الأماكن المعزولة والبعيدة عن المدن، وعلى الطرق الموصلة بين المدن بهدف خدمة التجار والمسافرين. وذكر ابن جبير في رحلته بعض هذه الخانات على الطريق بين حمص ودمشق مثل الخان الموجود في قرية القّارة، وخان آخر يُسمى بـ "خان السلطان" وهو خان بناه صلاح الدين.[35] وأما القياسر، فهي تشبه الفنادق والخانات ولكنها أكبر، حيث وصفها ابن

---

[23]- أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، *رحلة ابن جبير* (بيروت: دار صادر، د.ت)، 261.

[24]- شمس الدين أبى عبد الله محمد المقدسي، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم* (ليدن: مطبعة بريل، 1906)، 156.

[25]- منصور محمد عبد الرزاق، *الحمامات العامة بمدينة حلب منذ بداية العصر الأيوبي وحتى نهاية العصر العثماني: دراسة آثارية مقارنة* (القاهرة: المكتب العربي للمعارف، 2014)، 38.

[26]- خير الدين الأسدي، *أحياء حلب وأسواقها*، تح. عبد الفتاح رواس قلعه جي (دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1984)، 220-241.

[27]- السماط: الصف. وشيء يبسط ليوضع عليه الطعام. وجانب الطريق. ابن جبير، *رحلة ابن جبير*، 226.

[28]- المستوفز: المتهيء للوثوب. ابن جبير، *رحلة ابن جبير*، 227.

[29]- ابن جبير، *رحلة ابن جبير*، 226.

[30]- زكريا بن محمد بن محمود القزويني، *آثار البلاد وأخبار العباد* (بيروت: دار صادر، د.ت)، 183.

[31]- عبد الرزاق، *الحمامات العامة بمدينة حلب*، 39.

[32]- زكار - بيطار، *تاريخ الدولة العربية في المشرق*، 307.

[33]- الخان هي كلمة فارسية الأصل بمعنى منزل مؤثث أو نُزُل مفروش مُهيأ للطعام والشراب والنوم، وهو أيضاً دكان أو حانوت كبير للتجار. والخان في العمارة الإسلامية من أنواع العمائر التجارية التي تُبنى لتكون مكاناً يقصده التجار للاستراحة وبيع ما يحملونه من سلع. انظر: غزوان مصطفى ياغي، *المعالم الأثرية للحضارة الإسلامية في سورية* (الرباط-: منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 2011)، 128.

[34]- المقريزي، *المواعظ والاعتبار*، 93/2.

[35]- محمد سهيل طقوش، *تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة* (بيروت: دار النفائس، 2008)، 21؛ ابن جبير، *رحلة ابن جبير*، 233.

جبير وقال "كأنها الخان العظيم، تنغلق عليها أبواب الحديد، وتطيف بها دكاكين وبيوت، بعضها على بعض".[36] وهي عبارة عن مجموعة من المباني تتضمن دكاكين ومخازن وأحياناً مساكن وأروقة.[37] وذكر ابن جبير قياسر حلب في رحلته وقال "وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافةً وجمالاً، مُطيفة بالجامع المكرّم، لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها ولو كان من المرائي الرياضيّة. وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة، قد اتصل السماط خزانةً واحدة وتخللتها شُرَف خشبية بديعة النقش وتفتّحت كلها حوانيت، فجاء منظرها أجمل منظر. وكلّ سماط منها بباب من أبواب الجامع المكرم".[38] وأما قياسر دمشق فقد وصفها ابن جبير كما يلي "وهي مرتفعات كأنها الفناديق مثقّفة كلّها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور، وكل قيسارية منفردة بضبتها[39] وأغلاقها الجديدة".[40]

لقد كانت الأسواق في زمن الأيوبيين مُراقبة ومضبوطة بواسطة المحتسب الذي يعمل على النظر في الأسواق والطرقات والأسعار ومنع عمليات الغش والتدليس. وقد ذكر عبد الرحمن بن نصر الشيزري في ذلك "ينبغي أن تكون الأسواق في الارتفاع والاتساع على ما وضعه الروم قديماً، ويكون من جانبي السوق إفريزان يمشي عليهما الناس في زمن الشتاء، إذا لم يكن السوق مبلطاً. ولا يجوز لأحد من السوقة إخراج مصطبة دكانه عن سمت أركان السقائف إلى الممر الأصلي، لأنه عدوان على المارة، يجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله، لما في ذلك من لحوق الضرر بالناس. ويجعل لأهل كل صنعة منهم سوقاً يختص بهم، وتعرف صناعتهم فيه. ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار، كالخباز والطباخ والحداد، فالمستحب أن يبعد حوانيتهم عن العطارين والبزازين، لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار".[41] وأما فيما يتعلق بالأسعار والغش والتدليس والاحتكار فقد ذكر الشيزري "ولما لم تدخل الإحاطة بأفعال السوقة تحت وسع المحتسب، جاز له أن يجعل لأهل كل صنعة عريفاً من صالح أهلها، خبيراً بصناعتهم، بصيراً بغشوشهم وتدليساتهم، مشهورا بالثقة والأمانة، يكون مشرفاً على أحوالهم، ويطالعه بأخبارهم، وما يجلب إلى سوقهم من السلع والبضائع، وما تستقر عليه من الأسعار، وغير ذلك من الأسباب التي يلزم المحتسب معرفتها. وإذا رأى المحتسب أحداً قد احتكر الطعام من سائر الأقوات، وهو أن يشتري ذلك في وقت الرخاء، ويتربص به الغلاء، فيزداد ثمنه، ألزمه بيعه إجباراً".[42]

1-3- التجارة الخارجية

لقد اهتمت الدولة الأيوبية في عهد صلاح الدين بالتجارة الخارجية، وأقامت العلاقات التجارية مع المدن الأوروبية مثل البندقية وجنوا وبيزا.[43] ففي عام 1173 م وافق صلاح الدين على توقيع معاهدة تجارية مع البيزيين في الإسكندرية تكفل لهم امتلاك فندق وحمام وكنيسة وتمتعهم بحرية العبادة، وتم إعفاء واردات الذهب والفضة من الضرائب، وتم تشجيع استيراد المنتجات الغربية إلى مصر، وبخاصة الحديد والخشب والقار. وعلى غرار بيزا استمرت جنوا والبندقية تزاولان تجارتهما مع مصر في عهد صلاح الدين.[44] وكانت سفن البندقية في القرن الثاني عشر تقوم بالرحلات التجارية إلى مصر، تحمل إليها الرقيق والحديد والخشب وأدوات القتال، وتنقل منها التوابل الهندية والحرير الصيني والسلع المصرية.[45] وازدهر التبادل التجاري أيضاً بعد عقد الصلح المشهور بـ

---

[36]- ابن جبير، *رحلة ابن جبير*، 210.

[37]- زكار - بيطار، *تاريخ الدولة العربية في المشرق*، 308.

[38]- ابن جبير، *رحلة ابن جبير*، 227.

[39]- الضبة: حديدة عريضة يقفل بها الباب. ابن جبير، *رحلة ابن جبير*، 261.

[40]- ابن جبير، *رحلة ابن جبير*، 261.

[41]- الشيزري، *نهاية الرتبة*، 11.

[42]- الشيزري، *نهاية الرتبة*، 12.

[43]- الحارثي، *عمران القاهرة وخططها*، 220.

[44]- ف. هايد، *تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى*، تر. أحمد رضا محمد رضا (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991)، 47/2.

[45]- عادل زيتون، *العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى* (دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر، 1980)، 190.

"صلح الرملة" عام 588 هـ/1192 م بين المسلمين والصليبيين، حيث ازداد التبادل التجاري بين الطرفين. وكان لمصر أيضاً علاقات تجارية قوية مع الهند والحبشة.[46]

2- الزراعة

2-1- أهمية الزراعة ونظم الري

حظيت الزراعة ووسائل الري بالاهتمام والعناية في عهد صلاح الدين الأيوبي بهدف مواجهة ويلات المجاعات الناتجة عن الحروب.[47] ولقيت الزراعة تشجيعاً كبيراً من قبل الأمراء الأيوبيين، مما ساعد على ازدهار وتطور النشاط الزراعي.[48] واهتم صلاح الدين بأنظمة الري من خلال عمارة القناطر والجسور. وكانت الجسور في ذلك العصر على نوعين: جسور سلطانية، تتولى الحكومة ببنائها والإنفاق عليها، وهذه الجسور تستفيد منها عموم البلاد. أما النوع الثاني فهو الجسور الخاصة بجهة معينة وتنتفع منها تلك الجهة فقط، ويتولى بنائها أصحاب الاقطاعات والفلاحون.[49]

كان الري في مصر يعتمد بالدرجة الأولى على نهر النيل، وكان يُستخدم أسلوب الري بالحياض، بمعنى تقسيم الأراضي إلى حياض كبيرة تُغمر بمياه الفيضان مدة كافية ثم تصرف تلك المياه لتبذر البذور. وكانت البلاد تبقى تحت رحمة الفيضان، فإذا جاء الفيضان منخفضاً، يقل المحصول وترتفع الأسعار وتنتشر المجاعات والأوبئة.[50] وأما بلاد الشام والحجاز فقد اعتمدت الزراعة فيها بالدرجة الأولى على مياه الأمطار والأنهار والعيون.[51]

2-2- المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية

وأما المحاصيل الزراعية، فقد اشتهرت مصر بالحبوب كالقمح والشعير والعدس والحمص والفول والسمسم، والقطن، وقصب السكر، والخضراوات، والفواكه كالتين والتفاح والبطيخ والخوخ والمشمش والموز،[52] في حين اشتهرت بلاد الشام بالحبوب كالشعير والذرة والأرز والسمسم والجلبان واللوبياء، والخضراوات كالملوخيا والباذنجان واللفت والجزر والقنبيط، والفواكه كالتين والعنب والرمان والقراصيا والبرقوق والمشمش والخوخ والتوت والتفاح والكمثرى والسفرجل والجوز والبندق والأجاص والزعرور، والزيتون، والحمضيات كالليمون والكباد والنارنج.[53] وأما بلاد الحجاز، فأهم حاصلاتها الحبوب كالشعير والذرة، والخضراوات كالباذنجان والملوخيا والهندبا والقثاء والفجل، والبصل والثوم، والفواكه كالرطب والعنب والموز والتفاح والسفرجل والليمون.[54] وأما اليمن، فقد اشتهرت بزراعة الحبوب كالحنطة والشعير والذرة والأرز والسمسم، والفواكه كالعنب والرمان والسفرجل والتفاح والخوخ

---

[46]- الحارثي، *عمران القاهرة وخططها*، 220.

[47]-عبد الله ناصح علوان، *صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين* (القاهرة: دار السلام، د.ت)، 117.

[48]-محمد صديق حسن، "سياسة الأيوبيين الزراعية في بلاد الشام"، *آداب الرافدين* 48 (2007)، 9.

[49]- المقريزي، *المواعظ والاعتبار*، 101/1؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، *مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك* (بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1972)، 128.

[50]- عاشور، *مصر والشام*، 125.

[51]- حسن، *سياسة الأيوبيين*، ص 6؛ باقاسى، *بلاد الحجاز*، 101.

[52]- المقريزي، *المواعظ والاعتبار*، 100/1-103.

[53]- أبي العباس أحمد القلقشندي، *صبح الأعشى في صناعة الإنشا* (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1922)، 86/4-87.

[54]- القلقشندي، *صبح الأعشى*، 247/4-248.

والتوت والموز والليمون.[55] وقد اهتم الأيوبيين بزراعة محاصيل جديدة في اليمن، حيث أمر الملك طغتكين بجلب الفواكه والخضراوات من مصر والهند والحجاز والعراق لزراعتها في اليمن، وأمر أيضاً بغرس البساتين بأصناف الأشجار.[56]

وأما الثروة الحيوانية، فكان لها أهمية اقتصادية ودور مهم في الغذاء مثل الماعز والأغنام والأبقار والجمال، ومنها ما كان يستخدم للنقل مثل الخيول والجمال والحمير والبغال.[57] وتم الاهتمام بالثروة الحيوانية من الناحية الصحية، وحمايتها من الأمراض الفتّاكة، حيث تم تخصيص بيمارستان خاصا بها، عرف بـ بيمارستان (الاسطبل)، وخُصص له الأطباء البيطريين الأكفاء، وتم تجهيزه باللوازم الطبية لغرض معالجة الحيوانات السقيمة والمصابة في المعارك ضد الصليبيين.[58]

2-3- نظام الإقطاع

الإقطاع هو إعطاء جزء من الأرض وإباحتها لشخص ما، وقد يكون الإقطاع تمليكاً أو غير تمليك.[59] واتبعت الدولة الأيوبية نظام الإقطاع الإداري والحربي. أما الإداري، فهو مخصص لأمراء الأسرة الأيوبية وكبار رجال الدولة، ويجب على الأمير المقطع الالتزام بشروط ديوان الإقطاع، وفي حال عدم الالتزام، يُنتزع منه الإقطاع ويُعطى لغيره.[60] وأما الحربي، فهو مخصص للجيش، فقد خصص الأيوبيين لجيشهم الإقطاعات،[61] وارتبط الإقطاع الحربي بالخدمات العسكرية التي يقدمها المقطع، حيث يترتب عليه تجهيز وتقديم الجند لجيش السلطان مقابل الاقطاع الذي يحصل عليه، حيث كان الاقطاع بمثابة راتب للقادة والولاة.[62] وكان صلاح الدين الأيوبي يمنح قادته بعض المدن التي يفتحها على شكل إقطاع، ومنها على سبيل المثال، عندما فتح مدينة عزاز أقطعها لابن أخيه تقي الدين عمر.[63] وتميزت الإقطاعات الأيوبية بخاصية التوريث والطبيعة الانتقالية، ونظراً لتوريث الاقطاعات فقد كان الفرسان يحاربون بشجاعة لأنهم يحمون حقوقهم المطلقة.[64] وكان على المقطعين الالتزام بتقديم خدمات مالية (مثل ضرائب الزكاة والجزية وغيرها)، وخدمات مدنية، كتوفير الأمن في الإقطاع والاهتمام بالزراعة وصيانة الجسور.[65] لقد حرصت الدولة الأيوبية على حماية الفلاحين من ظلم الإقطاعيين، فكان التوقيع الخاص بالإقطاع يأمر المقطع بتحقيق العدل والاهتمام بالقضاء، وحماية الإقطاع وإدارته بكفاءة، والالتزام بالنزاهة وعدم تقاضي الرشوة من الناس، والمساهمة في تعميره وتحقيق الأمن والاستقرار.[66] إن هذه القيود التي تم وضعها على الإقطاعيين ساهمت في حماية الفلاحين من الظلم والعسف، ولعبت دوراً مهماً في الحد من نفوذ وثروة الإقطاعيين.[67]

3- الصناعة

---

[55]- القلقشندي، *صبح الأعشى*، 16/5.

[56]- حيدر، "المؤسسات التعليمية"، 55.

[57]- أبو دمعة، *الحياة الاقتصادية*، 119.

[58]- محمود، *إجحاف بحق المجاهد صلاح الدين الأيوبي*، 278.

[59]- ابن منظور. *لسان العرب*. 8/ 280-281؛ القلقشندي، *صبح الأعشى*، 111/13؛ خالد سليمان حمد بني عبد الرحمن، *إدارة بلاد الشام في العصر الأيوبي* (عمان: الجامعة الأردنية، رسالة دكتوراه، 1997)، 129.

[60]- عبد الرحمن، *إدارة بلاد الشام*، 129.

[61]- أ. آشتور، *التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى*، تر. عبد الهادي عبلة (دمشق: دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1985)، 301.

[62]- عبد العزيز الدوري، *مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي* (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007)، 79.

[63]- شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة، *كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية*، تح. إبراهيم الزيبق (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1997)، 412/2.

[64]- آشتور، *التاريخ الاقتصادي والاجتماعي*، 302.

[65]- عاشور، *مصر والشام*، 127.

[66]- القلقشندي، *صبح الأعشى*، 11/33-34؛ 13/144-148؛ عاشور، *مصر والشام*، 128.

[67]- عاشور، *مصر والشام*، 128.

3-1- أنواع الصناعات

لقد تميز العصر الأيوبي بالازدهار الصناعي وتنوع الصناعات والسلع المنتجة لتغطي مجالات واسعة سواء المدني منها أو الحربي. واهتمت الدولة الأيوبية في مصر بالصناعات النسيجية (كالكتانية والصوفية وصناعة الثياب الملونة)، وصناعة الحصر والحبال، والصناعات الجلدية، والصباغة،[68] والصناعات الغذائية كالسكر،[69] والحلوى،[70] والزيوت،[71] وصناعة الصابون،[72] والصناعات المعدنية كالذهب والفضة والنحاس،[73] وصناعة السفن،[74] وصناعة الأسلحة،[75] وصناعة الفخار.[76] وأما بلاد الشام فقد اشتهرت بالصناعات النسيجية (كالمنسوجات الحريرية والقطنية والسجاد)، وصناعة الورق والزجاج،[77] والدباغة وصناعات الجلود، وتربية دودة الحرير، والنجارة، والصناعات المعدنية (كالذهب والفضة والحديد والفولاذ والنحاس)، وصناعة الأدوات الحربية، والصياغة، والخزف والفخار والصدف والرخام.[78] وأما عن الصناعات التي كانت موجودة في بلاد الحجاز في العصر الأيوبي فكان أهمها: صناعة الأدوات الزراعية (كالفؤوس والمحاريث والمناجل)، وصناعة الحصير والنجارة والفخار والحلوى وصناعة الحُلي (كالخواتم والخلاخيل والعقود)، وصناعة الأدوات الحربية (كالدروع والسيوف والنبال).[79] وأما اليمن، فقد تم إدخال صناعات جديدة إليها في العصر الأيوبي مثل الزجاج والآجر. وقد اشتهرت اليمن بالصناعات الجلدية (كالأحذية والأحزمة)، وصناعة النسيج، وصناعة الأسلحة والعطور والحلويات.[80]

3-2- الصُنّاع وطوائفهم

لقد حافظ أصحاب الحرف والصنّاع في مصر وبلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين على التقاليد الموروثة واستمروا بإتباع نفس الأساليب الصناعية التي كانت متبعة في الفترة من القرن الرابع حتى السابع الهجري. وكانت حقوقهم محمية من قبل نقابات ينتظمون فيها، وكان لهذه النقابات نظم وتقاليد يحترمها الجميع وتشرف من خلالها على أعمال الصُنّاع. وكان تنظيم طوائف الصناع على الشكل التالي:

- الشيخ: يعتبر الشيخ حاكم الحرفة ورئيس الطائفة، ويتم انتخابه من قبل الأساتذة (المعلمين) من رجال الحرفة.[81]
- ثم يأتي بعد الشيخ، المعلم، ثم الصانع، ثم المبتدئ. ويشكل الصُنّاع العدد الأكبر في كل المهن والكارات. وأما المبتدئ أو الأجير، يعمل لعدة سنين بدون أجرة، ويكتفي بتعلم الصنعة من أستاذه، ومنهم من يرتب له جُمْعيَّة (أجرة تدفع كل أسبوع) تتناسب مع مهارته.[82]

---

[68]- المقدسي، *أحسن التقاسيم*، 202-203.

[69]- القزويني، *آثار البلاد*، 147.

[70]- المقريزي، *المواعظ والاعتبار*، 99/2.

[71]- ناصر خسرو علوى، *سفر نامة*، تر. يحيى الخشاب (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993)، 120.

[72]- أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله المعروف بالشريف الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الأفاق* (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002)، 128.

[73]- المقريزي، *المواعظ والاعتبار*، 97/2، 105.

[74]- أبو شامة، *كتاب الروضتين*، 449/2.

[75]- الأسعد بن مماتي، *قوانين الدواوين*، تح. عزيز سوريال عطية (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1991)، 354.

[76]- علوى، *سفر نامة*، 119.

[77]-آشتور، *التاريخ الاقتصادي والاجتماعي*، 114، 116-117.

[78]- محمد كرد علي، *خطط الشام*، (دمشق: مكتبة النوري، د. ت)، 206/4-226.

[79]- باقاسى، *بلاد الحجاز*، 104-105.

[80]- حيدر،" المؤسسات التعليمية"، 55.

[81]- عبد العزيز صلاح سالم، *الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي* (القاهرة: مركز الكتاب للنشر، 1999)، 54/1.

3-3- مراكز الصناعة في العصر الأيوبي

من أهم المراكز الصناعية في مصر وبلاد الشام في العصر الأيوبي:

- **القاهرة:** كانت القاهرة من المراكز العمرانية المهمة وازدهرت فيها الأسواق والأنشطة الحرفية والصناعية في العصر الأيوبي، مما ساهم في تحفيز التجار والصناع للانتقال إلى القاهرة لممارسة النشاط التجاري والصناعي، والذي بدوره أدى إلى دفع عجلة الازدهار الصناعي في القاهرة وجعلها من أهم المراكز الصناعية. واشتهرت القاهرة بصناعة المنسوجات والسجاد والصباغة، وإنتاج الأخشاب، وراجت فيها صناعة التحف المعدنية.[83] وفيها سوق للخراطين يحتوي على حوانيت الخراطين وحوانيت صناع السكاكين والدوى.[84] واشتهرت القاهرة أيضاً بصناعة الفخار، وصناعة الورق، وقد صحب هذه الصناعة في مصر فن تجليد الكتب، حيث استخدم الصناع جلود العجول كما استخدموا الحرير والديباج والأطلسي في تجليد المصاحف.[85] واشتهرت أيضاً بصناعة الأقمشة والملابس وأدوات الزينة والمنتجات الجلدية والمصنوعات العاجية والطرائف، والصناعات الخشبية.[86]

- **الفسطاط:** ساهم الأيوبيين بإعادة إعمار الفسطاط بعد أن حرقها الوزير الفاطمي "شاور" في عام 564 هـ، حيث بدأ أسد الدين شيركوه ومن بعده ابن أخيه صلاح الدين في إعادة الإعمار وإنشاء المباني والأسواق والمصانع. واشتهرت الفسطاط بالصناعات المعدنية كالحديد، وتواجد فيها مسابك النحاس ومسابك الفولاذ، واشتهرت بتصنيع قطع النحاس كالأباريق والمباخر والثريات والأواني المنزلية.[87] واشتهرت الفسطاط أيضاً بكثرة الطواحين وبصناعة الزجاج والصابون والصناعات الجلدية والصناعات الخشبية. وزخرت أيضاً بالعديد من الصناع العاملين في الصناعات الحربية، حيث اشتهرت بصناعة الأقواس.[88] وكانت الفسطاط مركزاً مهماً لصناعة الفخار، والخزف ذي الزخارف المنقوشة والملونة. وانتشرت في الفسطاط حرفة الصباغة.[89]

- **مدينة تنيس ودمياط:** تعتبر تنيس ودمياط من المراكز المهمة لصناعة المنسوجات في العصر الأيوبي، حيث اشتهر سكانها بصناعة الألبسة الملونة والمصنوعة من الكتان. واشتهرت مدينة دمياط بصناعة القماش الشفاف من الخيوط الحريرية والمذهبة. وكان يُنسج في مدينة تنيس القصب الملون والبوقلمون[90] الذي لا يُنسج في مكان آخر من جميع العالم.[91] ولشهرة مدينة تنيس بدقة صناعاتها النسيجية كان يُصنع بها كسوة الكعبة. واشتهرت تنيس بصناعة الأصباغ، وبرع أهلها في طبع وختم الزخارف على المنسوجات.[92]

- **الإسكندرية:** اشتهرت الإسكندرية بصناعة السفن والخزف، وازدهرت فيها أيضاً صناعة النسيج ولاسيما المنسوجات الكتانية والحريرية،[93] حيث كانت تنسج المنسوجات الحريرية الرائعة وثياب الحرير الأبيض، واختصت أيضاً بصناعة الحرير الإسكندري.[94]

---

[82]- إلياس عبده قدسي، *نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية* (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2019)، 19.

[83]- سالم، *الفنون الإسلامية*، 140/2.

[84]- المقريزي، *المواعظ والاعتبار*، 103/2.

[85]- مطر، *الحياة الاجتماعية*، 290، 311.

[86]- الحارثي، *عمران القاهرة وخططها*، 336-339.

[87]- سالم، *الفنون الإسلامية*، 142/2-144.

[88]- مطر، *الحياة الاجتماعية*، 309، 289، 391، 321.

[89]- سالم، *الفنون الإسلامية*، 144/2-145.

[90]- البوقلمون: قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار. سالم، *الفنون الإسلامية*، 145/2.

[91]- علوى، *سفر نامة*، 92؛ سالم، *الفنون الإسلامية*، 145/2.

[92]- مطر، *الحياة الاجتماعية*، 276، 286-287.

[93]- سالم، *الفنون الإسلامية*، 147/2.

- **دمشق:** اشتهرت دمشق بصناعها المهرة في كل فن من البنائين وصناع السلاح والمصوغ وغير ذلك.[95] وكان اسم "دامسكو" في أوروبا يمثل رمز الإتقان والجودة الدمشقية، حيث اشتهرت دمشق بالمنسوجات الحريرية والصوفية والقطنية والكتانية.[96] ووصف العالم أبي البقاء بن محمد البدري صناعة دمشق وقال "ومن محاسن الشام ما يصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه... وفيها تعمل صناعة الذهب المسكوك... وصناعة القرطاس بحسن صقاله ونقيّ أوصاله...وفيها صناعة الحرير... وفيها تعمل صناعة السلاح...وصناعة النحاس".[97] ووصف الإدريسي أيضاً صناعات دمشق وقال "ومدينة دمشق جامعة لصنوف من المحاسن وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة العديم المثال الذي يحمل منها إلى كل بلد ويتجهز منها به إلى كل الآفاق والأمصار المصاقبة لها والمتباعدة منها...".[98]

واشتهرت دمشق أيضاً بصناعة الفخار، والورق الذي تميز بجودته ومتانته.[99] وكانت دمشق من المراكز المهمة لصناعة التحف الأيوبية، وقد حرص الصناع والفنانين على كتابة اسم مدينة دمشق على القطع ترويجاً لها.[100] واشتهرت دمشق بصناعة الأدوات الحربية وأهمها السيوف، حيث اشتهرت بالسيف الدمشقي البديع الصنعة.[101] وبرزت في دمشق أيضاً المصنوعات الخشبية، ومنها الصناديق الخشبية المصنوعة من خشب الجوز، والصناديق المزينة بالخزف، والبناء الخشبي والأبواب والنوافذ.[102]

- **حلب:** كانت حلب من المراكز التجارية المهمة، حيث كانت تمر بها القوافل التجارية والتجار من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق.[103] واشتهرت حلب بعدة صناعات، منها صناعة الصابون، حيث كانت حلب تنتج أفخر أنواع الصابون، وتبيعه إلى ممالك الروم والعراق وديار بكر، وكان يُباع في حلب في اليوم الواحد من الصابون ما لا يُباع في غيرها في أشهر.[104] واشتهرت حلب بصناعة المنسوجات والزيتون والعطور، وصناعة الأحذية والجلود.[105] وتميزت حلب بماء الورد النصيبي العديم المثال، وكان الأطباء يصفونه للمرضى كدواء.[106] واشتهرت حلب أيضاً بصناعة المناديل الحريرية.[107]

4- الإدارة المالية والنقود

بعد زوال الدولة الفاطمية وبداية عهد صلاح الدين الأيوبي، ظلت معظم النظم الفاطمية سارية في الدولة الأيوبية مع إدخال بعض التعديلات عليها، ومن هذه النظم "ديوان النظر"، وهو الديوان المسؤول عن موارد ونفقات الدولة.[108] ويتولى رئاسة ديوان النظر شخص يدعى "الناظر"،[109] وهو من ينظر في الأموال وتصرفاتها ويُرفع إليه حسابها لينظر فيه ويتأمله فيُمضي ما يُمضي ويَرُد

---

[94]- الطواهية، *الحياة الاقتصادية*، 247.

[95]- ابن فضل الله شهاب الدين العمري، *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار* (بيروت: دار الكتب العلمية، 2010)، 356-357.

[96]- أبو دمعة، *الحياة الاقتصادية*، 129.

[97]- أبي البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي، *نزهة الأنام في محاسن الشام* (بغداد: المكتبة العربية، 1341هـ)، 362-363.

[98]- الإدريسي، *نزهة المشتاق*، 369.

[99]- علي، خطط الشام، 220/4، 222.

[100]- سالم، *الفنون الإسلامية*، 148/2.

[101]- علي، *خطط الشام*، 213/4-214.

[102]- علي، *خطط الشام*، 208-209.

[103]- علوى، *سفر نامة*، 55.

[104]- أبي الفضل محمد بن الشحنة، *الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب* (سورية: دار الكتاب العربي، 1984)، 254.

[105]- محمود، *إجحاف بحق المجاهد صلاح الدين الأيوبي*، 256.

[106]- ابن الشحنة، *الدر المنتخب*، 251-252.

[107]- علي، *خطط الشام*، 204/4.

[108]- البيومي إسماعيل، *النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك* (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998)، 35.

[109]- ابن مماتي، *قوانين الدواوين*، 297.

ما يَرُد.[110] ويساعد الناظر مجموعة من المستخدمين يعملون في الديوان،[111] ويعتبر الناظر بمثابة الرئيس الفعلي لديوان المال الأيوبي ويشرف على كافة أعمال العمال الآخرون، حيث تُرفع إليه كافة السجلات ليُصادق عليها بختمه أو يردها، وهو من يتولى إرسال الجابي الكشاف إلى الأعمال المختلفة للاطلاع على أحوال الولاة، ويقوم أيضاً بمهام تجارية خاصة في الثغور فيشتري البضائع ويبيعها بهدف تحقيق الأرباح لبيت المال. ويتم تعيين الناظر بأمر من السلطان، ويجب أن يكون من أصحاب الخبرة في أمور الحسابات.[112]

4-1- موارد الدولة الأيوبية

4-1-1- الزكاة: عمل صلاح الدين الأيوبي في سنوات حكمه الباكرة في مصر على إلغاء كافة الضرائب والمكوس التي فرضها الفاطميون والتي كانت منافية لأحكام الشريعة الإسلامية،[113] حيث كتب القاضي الفاضل عن صلاح الدين مرسوماً بإسقاط مكوس مصر والقاهرة.[114] وكان صلاح الدين يُسارع إلى رفع الضريبة في المدن والأقاليم التي يضمها إلى دولته، وعندما استولى على دمشق كان أول عمل اتخذه هو إبطال الضرائب،[115] وكذلك الأمر في حلب والرقة، وأسقط أيضاً مكس مكة عن الحجاج، حيث كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤوس ما ينسب إلى الضرائب والمكوس، فإذا دخل حاج حُبس حتى يؤدي مكسه، ويَفُكَّ بما يطلبونه منه نفسه، وإذا كان فقيراً لا يملك، فهو يُحبس ولا يُترك.[116] وقد أعاد صلاح الدين فريضة الزكاة وجعلها البديل عن الضرائب غير الشرعية، واهتم بجمعها وأقام لها ديواناً تسلمه (متولي الزكاة). وكانت الزكاة تؤخذ على الذهب والفضة وعروض التجارة والماشية والمزروعات، مع إعفاء المواد الغذائية كالسمسم وبذور الكتان والزيتون والخضار.[117]

4-1-2- الخراج: يرتبط الخراج بالإقطاع الحربي ويعتبر من الإيرادات الأساسية لبيت المال، حيث يدفع المزارع ضريبة سنوية على الأرض التي يفلحها، ليقوم المقطع باستقطاع النسبة المطلوبة منه دفعها لخزانة الدولة.[118] وارتبط الخراج أيضاً بالغابات والمعادن، حيث كانت الغابات من أملاك الدولة وتوجب على المنتفعين منها دفع الرسوم مقابل انتفاعهم بأخشابها،[119] وكانت الأخشاب والمعادن من اللوازم الضرورية لصناعة الأسلحة والسفن، ولذلك تم احتكارها من قبل الدولة.[120]

4-1-3- الضرائب التجارية: لقد فرض صلاح الدين ضريبة الصادرات والواردات من البضائع على التجار الأجانب، حيث ألزم التجار الأوروبيون بدفع ضرائب على البضائع المستوردة إلى الموانئ المصرية المطلة على البحر المتوسط وقد سُميت هذه الضرائب بالخُمس أو الخُمس الرومي.[121]

---

[110]- القلقشندي، *صبح الأعشى*، 465/5.

[111]- ابن مماتي، *قوانين الدواوين*، 297؛ القلقشندي، *صبح الأعشى*، 465/5.

[112]- عبد الرحمن، *إدارة بلاد الشام*، 118-119.

[113]- قاسم عبده قاسم - على السيد علي، *الأيوبيين والمماليك: التاريخ السياسي والعسكري* (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، د.ت)، 40. القلقشندي، *صبح الأعشى*، 470/3.

[114]- صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، *الوافي بالوفيات*، تح. أحمد الأرناؤوط - تركي مصطفى (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2000)، 61/29.

[115]- قاسم - علي، *الأيوبيين والمماليك*، 40؛ تقي الدين المقريزي، *السلوك لمعرفة دول الملوك*، تح. محمد عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997)، 168.

[116]- أبو شامة، *كتاب الروضتين*، 10/3.

[117]- شاكر مصطفى، *صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه* (دمشق: دار القلم، 2003)، 388.

[118]- القلقشندي، *صبح الأعشى*، 454/3-455؛ عاشور، *مصر والشام*، 138.

[119]- النابلسي، *لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية*، 48؛ عاشور، *مصر والشام*، 138.

[120]- مصطفى، *صلاح الدين الفارس المجاهد*، 389.

[121]- أنس أحمد ذياب الأحمد، التاريخ الاقتصادي للعصر الأيوبي من 569هـ إلى 648هـ/1173 م-1250م (إربد: جامعة اليرموك، رسالة دكتوراه، 2016)، 205.

4-1-4- ضرائب أخرى: وُجدت ضرائب أخرى غذت خزانة الدولة، ومنها ضريبة الجوالي (الجزية)، وهي ضريبة يتم فرضها على أهل الذمة -أي اليهود والنصارى[122]- الأحرار البالغين دون النساء والصبيان والرهبان والعبيد والمجانين.[123] ومنها أيضاً أموال المواريث الحشرية وهم الذين يموتون دون وريث،[124] حيث يرثهم بيت المال، وإن خلف من لم يستحق كل الميراث، أخذ سهمه وكان الباقي لبيت المال.[125] ومنها أيضاً الرسوم التي تفرضها دار الضرب، وهي الرسوم التي يتم جبايتها من أصحاب الأموال الذين يرغبون في سك ما لديهم من ذهب أو فضة في صورة عملة رسمية.[126] بالإضافة إلى الضرائب والايرادات السابقة وُجدت أيضاً موارد أخرى للدولة الأيوبية مثل كنوز الفاطميين الكثيرة التي أصبحت ملكاً للدولة الأيوبية بعد أن سيطر صلاح الدين على مصر، وموارد الفدية التي يتم تحصيلها من الأسرى، والغنائم التي يتم اكتسابها أثناء الحروب.[127]

4-2- أوجه الإنفاق

كان صلاح الدين الأيوبي يُوجه جميع الموارد والثروات لخدمة الدولة الإسلامية وإعلاء شأنها وتحقيق العدل ومحاربة الظلم والعدوان الصليبي. وقد ذكر القاضي بهاء الدين بن شداد أن صلاح الدين الأيوبي "لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصرية وجرمًا واحدًا ذهبًا، ولم يخلف ملكًا، ولا دارًا، ولا عقارًا، ولا بستانًا، ولا قرية، ولا مزرعة، ولا شيئًا من أنواع الأملاك".[128] ويمكن تعداد أبرز أوجه الانفاق في الدولة الأيوبية كما يلي:

4-2-1- المؤسسات التعليمية

- المدارس والمساجد: حظي العلم والعلماء بعناية كبيرة في عهد صلاح الدين، حيث اهتم بإنشاء المدارس ودور العلم، وزاد عددها بشكل كبير في عهده.[129] وكان لنظام الوقف على المدارس في الدولة الأيوبية دوراً مهماً في تنشيط وتطوير الحركة العلمية، حيث تم الاهتمام بطلبة العلم من خلال توفير كامل احتياجاتهم من النفقة والطعام والكسوة والإقامة.[130] وكان لكل مدرسة وقف خاص لها يُعد بمثابة ميزانية ثابتة تُنفق على الطلاب والمعلمين وتكفل لهم حياة كريمة تُشجعهم على طلب العلم.[131] وكانت المدارس تحتوي على مسجد ومسكن للمدرس ومكتبة عامرة بالكتب النفيسة.[132] وقد ذكر ابن جبير عن القاهرة ما يلي "ومن مآثره الكريمة المعربة عن اعتناءه بأمور المسلمين كافة أنه أمر بعمارة محاضر[133] ألزمها معلمين لكتاب الله، عزّ وجلّ، يُعلمون أبناء الفقراء والأيتام وتجري عليهم الجراية الكافية لهم".[134] ووصف ابن جبير أيضاً المدرسة الصلاحية في القاهرة وقال "لم يُعْمَر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع مساحة، ولا أحفل بناء، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته... والنفقة عليها لا تُحصى".[135] وكانت مهنة التدريس عالية

---

[122]- المقريزي، *المواعظ والاعتبار*، 17/1؛ عاشور، *مصر والشام*، 138

[123]- ابن مماتي، *قوانين الدواوين*، 317.

[124]- عاشور، *مصر والشام*، 138.

[125]- ابن مماتي، *قوانين الدواوين*، 319.

[126]- ابن مماتي، *قوانين الدواوين*، 332-333؛ عاشور، *مصر والشام*، 139.

[127]- علوان، *صلاح الدين الأيوبي*، 117.

[128]- أبو المحاسن بهاء الدين بن شداد، *النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية* (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2015)، 10.

[129]- محمود، إجحاف بحق المجاهد صلاح الدين الأيوبي، 264.

[130]- رياض مصطفى أحمد شاهين - رشاد عمر المدني، *الأوقاف وأثرها على الحياة العلمية في بلاد الشام في العهد الأيوبي* (غزة: الجامعة الإسلامية بغزة، 2006)، 3.

[131]- زكار - بيطار، *تاريخ الدولة العربية في المشرق*، 280.

[132]- زكار - بيطار، *تاريخ الدولة العربية في المشرق*، 278.

[133]- محاضر: مدارس. ابن جبير، *رحلة ابن جبير*، 27.

[134]- ابن جبير، *رحلة ابن جبير*، 27.

[135]- ابن جبير، *رحلة ابن جبير*، 22.

المقدار، ومارسها القضاة والفقهاء وغيرهم. وكانت بعض المدارس كالكليات والمعاهد، وهي أعلى مستوى من المساجد والكتاتيب التي تُعلم المبتدئين أصول القراءة والكتابة والعلوم الشرعية. ولم يقتصر بناء المدارس على إدارة الدولة فقط، وإنما شارك فيها الأشخاص من رجال الدولة ووجهائها،[136] ومثال ذلك، المدرسة الصاحبية في مدينة حلب التي أنشأها القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف بابن شداد سنة 601 هـ ودرّس فيها.[137]

لقد ساهمت المساجد أيضاً في العصر الأيوبي في ازدهار الحركة العلمية، وكانت تركز على تعليم العلوم الدينية والعربية. وحُظيت المساجد باهتمام كبير ووقفت لها الكثير من الأوقاف، ونال المعلمون فيها أجور مرتفعة، وكان يُلحق بالمسجد مساكن للمعلمين والمتعلمين.[138] وذكر ابن جبير في وصف مدينة دمشق "حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه. وكل مسجد يُستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقة يُعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها".[139]

- الخوانق:[140] اهتم صلاح الدين بالخوانق وأوقف عليها الأوقاف، وهو أول من أنشأ الخوانق في مصر، وبنى في بيت المقدس بعد فتحها خانقاهاً في دار البطريرك وأوقف عليه الأوقاف. وكان صلاح الدين يحب المتصوفين والطرق الصوفية، وهذا يفسر لنا السبب في زهده وتقشفه وبساطته في كل مظهر من مظاهر حياته.[141]

2-2-4 البيمارستانات: البيمارستان كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى مريض و(ستان) بمعنى مكان أو دار فهي إذاً دار المرضى، ثم اختصرت في الاستعمال فصارت مارستان.[142] لقد اهتم الأيوبيون بالطب وأنفقوا على بناء البيمارستانات لمعالجة المرضى وتدريس الطب. وفي عام 1182 م أنشأ صلاح الدين بيمارستاناً في أحد أجزاء القصر الفاطمي في القاهرة وأوقف عليه الأوقاف لتغطية مصاريفه.[143] وقد وصف ابن جبير البيمارستان الناصري في القاهرة وقال "ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة. وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً. وعيّن قيّماً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكّنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها. ووُضِعت في مقاصير ذلك القصر أسرّة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكُسى. وبين يدي ذلك القيّم خَدَمَة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرةً وعشيّةً، فيقَابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم. وبإزاء هذا الموضع موضعٌ مُقتطعٌ للنساء المرضى. ولهنّ أيضاً من يكفلُهُن. ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متّسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين. ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها. والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد".[144] وأمر صلاح الدين ببناء بيمارستان في الفسطاط مُشابه لبيمارستان القاهرة. وأنشأ أيضاً في عام 1182 م بيمارستاناً في الإسكندرية.[145] ولم تكن البيمارستانات لمعالجة المرضى فقط، وإنما ساهمت أيضاً في تعليم الطب والتدريب على ممارسته، حيث كانت تُعقد جلسات

---

[136]- عبد الرحمن، *إدارة بلاد الشام*، 239.

[137]- محمد بن علي بن إبراهيم ابن شداد، *الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة* (دمشق: منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، 1991)، 251/1/1.

[138]- زكار - بيطار، *تاريخ الدولة العربية في المشرق*، 280.

[139]- ابن جبير، *رحلة ابن جبير*، 248.

[140]- الخوانق: مفردها "خانقاة"، كلمة فارسية معناها البيت، وهي تعتبر بيت الصوفية، وتشبه المدرسة من حيث الشكل والوظيفة، وكانت بمثابة مدرسة العامة ممن نذروا أنفسهم لحياة الزهد والتقشف. وقامت الخوانق بأدوار دينية واجتماعية وثقافية في المجتمع الإسلامي، حيث كانت بمثابة دور للعلم والعبادة. عاصم محمد رزق، *خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي* (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1997)، 22-23.

[141]- طقوش، *تاريخ الأيوبيين*، 215.

[142]- أحمد عيسى بك، *تاريخ البيمارستانات في الإسلام* (دار الرائد العربي، 1981)، 4.

[143]- طقوش، *تاريخ الأيوبيين*، 214.

[144]- ابن جبير، *رحلة ابن جبير*، 26.

[145]- ابن جبير، *رحلة ابن جبير*، 16-15؛ طقوش، *تاريخ الأيوبيين*، 214.

علمية في بعض البيمارستانات لتدريس الطب[146]، ومثال على ذلك ما ذكره الطبيب والمؤرخ ابن أبي أصيبعة (600-668 هـ) عن الدروس والمباحث الطبية والحلقات العلمية التي كان يعقدها الطبيب أبا المجد بن أبي الحكم في البيمارستان النوري في دمشق، حيث كان بعد أن ينتهي من معاينة ومداواة المرضى يأتي ويجلس في الايوان الكبير في البيمارستان ويحضر إليه جماعة من الأطباء والمشتغلين ويجلسون بين يديه، ثم تجري مباحث طبية، وتستمر هذه الحلقة مدة ثلاث ساعات. وذكر ابن أبي أصيبعة أيضاً أنه كان يتدرب على يد الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار، ويلازمه في وقت معالجته للمرضى في البيمارستان النوري.[147]

3-2-4 نفقات الجيش والتحصينات والاسطول

وجّه صلاح الدين اهتماماً كبيراً إلى الإنفاق العسكري وإعداد الجيش نظراً لشدة الحروب الصليبية، واعتمد على نظام الإقطاع الحربي لتغطية نفقات الجيش. وفي سنة 577 هـ/1181 م وصل تعداد الجيش الأيوبي في مصر إلى 8640 فارس، وبلغت نفقتهم 3.670.500 دينار.[148] واهتم صلاح الدين أيضاً ببناء التحصينات، ومثال ذلك، أمر صلاح الدين سنة 572 هـ بإعادة بناء سور القاهرة وبناء قلعة داخل السور بهدف تحصين القاهرة أمام الحملات الصليبية.[149] وقد وكل ببناء السور والقلعة أحد أمرائه المشهورين بالصرامة والعمل الجاد وهو بهاء الدين قرقوش الأسدي، وقد اشتهر بالشدة على معاونيه وإرهاقهم إرهاقاً شاقاً حتى ضُرب به المثل في الصرامة والشدة فأصبح "حكم قرقوش" في المثل العامي دالاً على الاضطهاد والظلم، وهي دلالة غير صحيحة، إذ يوجد فرق بين الظلم والعمل الجاد.[150] واهتم صلاح الدين أيضاً بالثغور الأخرى، فأنفق مليون دينار على سور مدينة دمياط،[151] وأمر ببناء قلعة وسور في مدينة تنيس.[152] وقد تولى ديوان الجيش المسؤولية عن الشؤون الخاصة بالجيش كإصدار الإحصاءات بعدد الجيوش والنفقات المخصصة لها، وتولى أيضاً الإنفاق على العمائر والتحصينات.[153] وأمّا الاسطول فقد كانت حالته سيئة في بداية العهد الأيوبي، وعهد صلاح الدين إلى ديوان الاسطول بالإشراف والإنفاق على بناء اسطول قوي، وخصص له موارد كبيرة.[154] وفي عام 572 هـ/1176 م أمر صلاح الدين بتعمير الاسطول عندما زار مدينة الإسكندرية، وجمع له اللوازم الضرورية من الأخشاب والصناع، وخصص له إقطاعاً منفرداً.[155] وأصبح الاسطول الأيوبي بحلول عام 575 هـ قوة ضاربة تعدادها ثمانون قطعة.[156] لقد اهتم الأيوبيين أيضاً بالبريد ووسائل التواصل ونقل المعلومات، واستخدموا الحمام الزاجل لهذا الغرض، واعتنوا به عناية شديدة وأنفقوا عليه الكثير من الأموال وبنوا له الأبراج في العديد من الثغور والمناطق.[157]

4-2-4 نفقات الديوان السلطاني

---

[146]- عبد الرحمن، *إدارة بلاد الشام*، 250-251.

[147]- ابن أبي أصيبعة، *عيون الأنباء في طبقات الأطباء*، تح. نزار رضا، (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت)، 628، 731.

[148]- المقريزي، *السلوك*، 187/1؛ عاشور، *مصر والشام*، 141.

[149]- المقريزي، *السلوك*، 173/1؛ محمد رجب البيومي، *صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي* (دمشق: دار القلم، 1998)، 118.

[150]- البيومي، *صلاح الدين*، 118.

[151]- المقريزي، *المواعظ والاعتبار*، 215/1؛ وفاء محمد علي، *قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام* (القاهرة: دار الفكر العربي، 1407هـ)، 114.

[152]- المقريزي، *السلوك*، 185/1-186؛ محمد علي، *قيام الدولة الأيوبية*، 114.

[153]- علي محمد الصلابي، *صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس* (بيروت: دار المعرفة، 2008)، 368.

[154]- زكار - بيطار، *تاريخ الدولة العربية في المشرق*، 322.

[155]- أبو شامة، *كتاب الروضتين*، 449/2.

[156]- زكار - بيطار، *تاريخ الدولة*، 323.

[157]- المقريزي، *المواعظ والاعتبار*، 231/2؛ القلقشندي، *صبح الأعشى*، 392/14. حمزة محمد البكوش. "دور البريد العسكري الأيوبي في الصراع الصليبي الإسلامي في بلاد الشام". مجلة العلوم الانسانية والتطبيقية 20 (2015)، 23-24.

يهتم هذا الديوان بجمع الإيرادات الخاصة بالسلطان والإنفاق على شؤون الدور السلطانية، حيث يُنفق على المطبخ السلطاني والأسمطة والخيول والمواكب السلطانية، والهدايا والهبات التي تُمنح باسم السلطان.[158]

4-3- النقود الأيوبية

لقد كانت الدنانير والدراهم والفلوس من العملات الأيوبية التي تم تداولها في الأسواق. وأمّا الدنانير، فهي تمثل العملة الذهبية، ومن أنواعها الدينار المصري، والدينار الجيشي (وهو مُسمى لا حقيقة، كان يستعمله أهل ديوان الجيش في عبرة الاقطاعات). أما الدراهم فكانت تمثل العملة الفضية، ومن أنواعها الدرهم النُقرة (ثُلُثاها من فضة وثلثها من نحاس)، والدراهم السوداء (وهي بثلث درهم النقرة).[159] وأما الفلوس فهي نوع من النقود النحاسية التي يتم استخدامها لإجراء العمليات التجارية البسيطة.[160] الشكل رقم (1) يعرض نموذج لدرهم أيوبي باسم صلاح الدين الأيوبي ضُرب سنة 582 هـ وزنه 2.8 جرام، وقطره 19 ملم.

وأمّا دور الضرب، فقد وُجدت دوران في مصر: دار بالقاهرة ودار بالإسكندرية.[161] وفي اليمن وُجدت دور للضرب في مدينة زبيد وتعز وعدن وصنعاء والتعكر.[162] ووجدت دار للضرب في مكة المكرمة،[163] ودمشق، وكان أول دينار يتم ضربه في دمشق في العصر الأيوبي هو الدينار الذي ضربه صلاح الدين في السنة التي فتح فيها القدس (583 هـ/1187 م). ومن مراكز الضرب أيضاً الرملة وغزة، وتم أيضاً ضرب الدرهم الناصري في حلب.[164]

لقد تعرضت مصر في بدايات العهد الأيوبي لنقص كبير في الذهب والفضة سنة 569 هـ/1173 م، وقد ذكر المقريزي هذا النقص كما يلي "وفيها عمت بلوى المصارف بأهل مصر، لأن الذهب والفضة خرجا منها وما رجعا وعُدما، فلم يوجدا، ولهج الناس بما غمّهم من ذلك وصاروا إذا قيل: دينار أحمر، فكأنما ذكرت حرمة له، وأن حصل في يده فكأنما جاءت بشارة الجنة له".[165] إن من أسباب هذا النقص هو انخفاض استغلال مناجم الذهب في وادي العلاقى بالصحراء الشرقية، وانخفاض حجم الصادرات المصرية في أواخر العصر الفاطمي، والتكاليف الكبيرة للعمليات العسكرية بين المصريين والصليبيين من ناحية، وبين صلاح الدين وبقايا الفاطميين من ناحية أخرى، بالإضافة إلى قيام الصليبيين بتهريب الذهب إلى البندقية ومرسيليا وبرشلونة.[166] وبسبب قلة الذهب، فقد أصدر صلاح الدين مرسوماً أمر فيه التعامل بالنقود على الفضة كقاعدة للصرف، وحساب قيمة الدينار بما يُصرف به من دراهم.[167] وكانت رواتب الجنود تُقدر بالذهب ولكن تُسدد بالدراهم الفضية، وكذلك الأمر بالنسبة لميزانية الدولة، يتم تقديرها بالذهب، ولكن يتم سداد النفقات بالدراهم الفضية.[168]

---

[158]- عاشور، *مصر والشام*، 139.

[159]- القلقشندي، *صبح الأعشى*، 3/442-443.

[160]- عبد الرحمن فهمي محمد، *النقود العربية ماضيها وحاضرها* (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1964)، 11.

[161]- ابن مماتي، *قوانين الدواوين*، 331.

[162]- عبد الله حاتم خالد المخلافي، *الأيوبيين في اليمن: 569-626هـ/1174-1229م* (دمشق: جامعة دمشق، رسالة دكتوراه، 2009)، 258.

[163]- باقاسي، *بلاد الحجاز*، 105.

[164]- عبد الرحمن، *إدارة بلاد الشام*، 147.

[165]- تقي الدين المقريزي، *رسائل المقريزي*، تح. رمضان البدري - أحمد مصطفى قاسم (القاهرة: دار الحديث، 1998)، 170.

[166]- منصور بن بعرة الذهبي الكاملي، *كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية*، تح. عبد الرحمن فهمي (الجمهورية العربية المتحدة: لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1966)، 39.

[167]- الطواهية، *الحياة الاقتصادية*، 220.

[168]- ابن بعرة، *كشف الأسرار العلمية*، 40.

الشكل رقم (1): درهم أيوبي

الوجه

مركز الوجه :

الإمام النا
صر لدين الله
أمير المؤمنين

هامش الوجه:

لا إله إلا / الله وحده / محمد رسو /ل

الظهر

مركز الظهر:

الملك النا
صر صلاح الد
نيا والدين

الهامش:

يوسف بن أيوب / ضرب بحماه / سنة اثنين و /ثمانين وخمس

المصدر: عبد الرحمن بن إبراهيم بن صالح البراهيم، *المسكوكات الأيوبية والمملوكية في المتحف الوطني للآثار والتراث الشعبي بالرياض: دراسة أثرية مقارنة* (الرياض: وكالة الآثار والمتاحف،2005)، 223،275،13،12،11.

وقد أبطل صلاح الدين في عام 583 هـ الدراهم السود، حيث وقع الاختلاف فيها وتضرر العامة بها، وقد ذكر المقريزي في ذلك أن صلاح الدين "أمر في شوال سنة 583 هـ بأن تُبطل نقود مصر، وضرب الدينار ذهباً مصرياً، وأبطل الدرهم الأسود، وضرب

الدراهم الناصرية وجعلها من فضة خالصة ومن نحاس، نصفين بالسوي".[169] ولكن حتى الدراهم الناصرية كانت رديئة وقيمتها الإسمية أعلى من قيمتها المعدنية، مما أضر بالناس ضرراً كبيراً، حتى أنها سُميت في مصر والإسكندرية بالدراهم الزائفة.[170] واستمر التعامل بهذه الدراهم في مصر والشام حتى عهد الملك الكامل، فأبطل الدرهم الناصري وأمر في سنة 622 هـ بضرب دراهم مستديرة، وجعل الدرهم الكاملي ثلاثة أثلاث، ثلثيه من فضة خالصة وثلثه من نحاس.[171]

5- الخاتمة

أظهرت دراسة النشاط الاقتصادي في زمن صلاح الدين الأيوبي أن اقتصاد الدولة الأيوبية كان مزدهراً من كافة النواحي التجارية والزراعية والصناعية. حيث اهتم صلاح الدين الأيوبي بالتجارة الداخلية، وعمل على تأمين التسهيلات اللازمة للتجار كتوفير الأمن والحماية لهم ولأموالهم، وتوسيع طرق المواصلات وتوفير الخدمات اللازمة لتسهيل تجارتهم، وضبط الأسواق ومراقبتها بواسطة المحتسب الذي يعمل على النظر في الأسواق والطرقات والأسعار ومنع عمليات الغش والتدليس. كما اهتم أيضاً بالتجارة الخارجية وعقد المعاهدات التجارية مع أهم المدن الأوروبية. وازدهرت الأسواق وزخرت بمختلف السلع والبضائع، وتميزت بالتخصص. إلى جانب ذلك، فقد تم بناء العديد من الخانات في الأماكن المعزولة والطرق الموصلة بين المدن بهدف خدمة التجار والمسافرين. وعلى الصعيد الزراعي، فقد تم تشجيع الزراعة والاهتمام بها من خلال الاعتناء بوسائل الري والأقنية، وبناء القناطر والجسور. وتم أيضاً إيلاء أهمية كبيرة للثروة الحيوانية. بالإضافة إلى ذلك، تم حماية الفلاحين من الظلم والعسف من خلال القيود التي تم وضعها على الاقطاعيين، حيث كان على المقطعين الالتزام بتقديم خدمات مالية ومدنية في الإقطاع وتحقيق العدل والنزاهة وحماية الإقطاع وإدارته بكفاءة والمساهمة في تعميره وتحقيق الأمن والاستقرار. وأمّا على مستوى الصناعة، فقد تميز العصر الأيوبي بالازدهار الصناعي وتنوع الصناعات والحرف، وكانت مدينة القاهرة والفسطاط وتنيس ودمياط والإسكندرية ودمشق وحلب من المراكز الصناعية المهمة في زمن الأيوبيين. وأمّا موارد الدولة الأيوبية، فقد كانت متنوعة ومن أهم مصادرها الزكاة والخراج والضرائب التجارية وغيرها من الضرائب الأخرى. وعمل صلاح الدين على إلغاء كافة الضرائب غير الشرعية التي كانت مفروضة في البلاد التي فتحها. ووجّه صلاح الدين موارد الدولة إلى تطوير التعليم من خلال الإنفاق على المؤسسات التعليمية كالمدارس والمساجد والخوانق. وتم أيضاً الإنفاق على البيمارستانات والاهتمام بالعلوم الطبية. وتم تخصيص مبالغ كبيرة للجيش وبناء التحصينات وتعمير الأسطول. أما على صعيد النقود فقد واجهت الدولة الأيوبية في بدايات عهدها نقص كبير في الذهب والفضة والذي بدوره أثر بشكل سلبي على النقود وجعل قيمتها الإسمية أعلى من قيمتها المعدنية.

---

[169]- المقريزي، *رسائل المقريزي*، 170؛ المقريزي، *السلوك*، 212.

[170]- ابن بعرة، *كشف الأسرار العلمية*، 40؛ المقريزي، *رسائل المقريزي*، 170.

[171]- المقريزي، *رسائل المقريزي*، 170.

المصادر والمراجع

ابن أبي أصيبعة. *عيون الأنباء في طبقات الأطباء*. تح. نزار رضا. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت.

ابن الشحنة، أبي الفضل محمد. *الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب*. سورية: دار الكتاب العربي، 1984.

ابن بعرة، منصور الذهبي الكاملي. *كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية*. تح. عبد الرحمن فهمي. الجمهورية العربية المتحدة: لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1966.

ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد. *رحلة ابن جبير*. بيروت: دار صادر، د.ت.

ابن شداد، أبو المحاسن بهاء الدين. *النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية*. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2015.

ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم. *الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة*. الجزء1، القسم1. دمشق: منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، 1991.

ابن عساكر، علي بن الحسن بن عبد الله الشافعي. *تاريخ مدينة دمشق*. بيروت: دار الفكر، 1995.

ابن مماتي، الأسعد. *قوانين الدواوين*. تح. عزيز سوريال عطية. القاهرة: مكتبة مدبولي، 1991.

أبو دمعة، أمين. *الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي*. دمشق: جامعة دمشق، رسالة ماجستير، 1988.

أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي. *كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية*. تح. إبراهيم الزيبق. بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1997.

الأحمد، أنس أحمد ذياب. *التاريخ الاقتصادي للعصر الأيوبي (من 569هـ إلى 648هـ/1173 م-1250م)*. اربد: جامعة اليرموك، رسالة دكتوراه، 2016.

الإدريسي، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله. *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002.

الأسدي، خير الدين. *أحياء حلب وأسواقها*. تح. عبد الفتاح رواس قلعه جي. دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1984.

إسماعيل، البيومي. *النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.

آشتور، أ. *التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى*. تر. عبد الهادي عبلة. دمشق: دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1985.

باقاسى، عائشة عبد الله عمر. *بلاد الحجاز في العصر الأيوبي*. جدة: جامعة الملك عبد العزيز، رسالة ماجستير، 1980.

البدري، أبي البقاء عبد الله بن محمد المصري الدمشقي. *نزهة الأنام في محاسن الشام*. بغداد: المكتبة العربية، 1341هـ.

البراهيم، عبد الرحمن بن إبراهيم بن صالح. *المسكوكات الأيوبية والمملوكية في المتحف الوطني للآثار والتراث الشعبي بالرياض: دراسة أثرية مقارنة*. الرياض: وكالة الآثار والمتاحف، 2005.

البكوش، حمزة محمد. "دور البريد العسكري الأيوبي في الصراع الصليبي الإسلامي في بلاد الشام". مجلة العلوم الانسانية والتطبيقية 20 (2015)، 21-32.

البيومي، محمد رجب. *صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي*. دمشق: دار القلم، 1998.

الحارثي، عدنان محمد فايز. *عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي*. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 1999.

الحازمي، ناصر محمد علي. *الحياة العلمية في دمشق في العصر الأيوبي (569-659هـ/1173-1260م)*. مكة: جامعة أم القرى، رسالة ماجستير، 1421هـ.

حسن، محمد صديق. "سياسة الأيوبيين الزراعية في بلاد الشام". *آداب الرافدين* 48 (2007)، 1-17. https://radab.mosuljournals.com/article_33544.html.

الحموي، محمد ياسين. *دمشق في العصر الأيوبي*. دمشق: مكتبة النشر العربي، 1946.

حيدر، فاروق أحمد. "المؤسسات التعليمية في عهد الدولة الأيوبية في اليمن". مجلة الدراسات الاجتماعية 16 (2003)، 43-97. https://search.emarefa.net/detail/BIM-107720.

الدوري، عبد العزيز. *مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007.

رزق، عاصم محمد. *خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي (567-923هـ/1171-1517م)*. القاهرة: مكتبة مدبولي، 1997.

زكار، سهيل - بيطار، أمينة. *تاريخ الدولة العربية في المشرق من السلاجقة حتى سقوط بغداد*. دمشق: جامعة دمشق، الطبعة 3، 1998.

زيتون، عادل. *العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى*. دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر، 1980.

سالم، عبد العزيز صلاح. *الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي*. القاهرة: مركز الكتاب للنشر، 1999.

شاهين، رياض مصطفى أحمد - المدني، رشاد عمر. *الأوقاف وأثرها على الحياة العلمية في بلاد الشام في العهد الأيوبي*. غزة: الجامعـــة الإسلاميـــة بغزة، 2006.

الشيزري، عبد الرحمن بن نصر. *نهاية الرتبة في طلب الحسبة*. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1946.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك. *الوافي بالوفيات*، تح. أحمد الأرناؤوط - تركي مصطفى. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2000.

الصلابي، علي محمد. *صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس*. بيروت: دار المعرفة، 2008.

طقوش، محمد سهيل. *تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة (569-661هـ/1174-1263م). بيروت:* دار النفائس، الطبعة 2، 2008.

الطواهية، فوزي خالد علي. *الحياة الاقتصادية في مصر في العصر الأيوبي (567-648 هـ / 1171-1250 م)*. عمان: الجامعة الأردنية، رسالة دكتوراه، 2008.

عاشور، سعيد عبد الفتاح. *مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك*. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1972.

عبد الرحمن، خالد سليمان حمد بني. *إدارة بلاد الشام في العصر الأيوبي*. عمان: الجامعة الأردنية، رسالة دكتوراه، 1997.

عبد الرزاق، منصور محمد. *الحمامات العامة بمدينة حلب منذ بداية العصر الأيوبي وحتى نهاية العصر العثماني: دراسة آثارية مقارنة*. القاهرة: المكتب العربي للمعارف، 2014.

علوان، عبد الله ناصح. *صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين*. القاهرة: دار السلام، د.ت.

علوى، ناصر خسرو. *سفر نامة*. تر. يحيى الخشاب. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة 2، 1993.

علي، محمد كرد. *خطط الشام*. الجزء 4. دمشق: مكتبة النوري، 1983.

العمري، ابن فضل الله شهاب الدين. *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*. الجزء 3. بيروت: دار الكتب العلمية، 2010.

عوض الله، الشيخ الأمين محمد. *أسواق القاهرة منذ العصر الفاطمي حتى نهاية عصر المماليك*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2014.

عيسى بك، أحمد. *تاريخ البيمارستانات في الإسلام*. بيروت: دار الرائد العربي، 1981.

قاسم، قاسم عبده - علي، علي السيد. *الأيوبيين والمماليك: التاريخ السياسي والعسكري*. الجيزة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، د.ت.

قدسي، إلياس عبده. *نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية*. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2019.

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود. *آثار البلاد وأخبار العباد*. بيروت: دار صادر، د.ت.

القلقشندي، أبي العباس أحمد. *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*. القاهرة: دار الكتب المصرية، 1922.

محمد علي، وفاء. *قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام*. القاهرة: دار الفكر العربي، 1407هـ.

محمد، عبد الرحمن فهمي. *النقود العربية ماضيها وحاضرها*. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1964.

محمود، أحمد عبد العزيز. *إجحاف بحق المجاهد صلاح الدين الأيوبي رجل عصره*. أربيل: مكتب التفسير للنشر والاعلام، 2010.

المخلافي، عبد الله حاتم خالد. *الأيوبيين في اليمن (569-626هـ/1174-1229م)*. دمشق: جامعة دمشق، رسالة دكتوراه، 2009.

مصطفى، شاكر. *صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه*. دمشق: دار القلم، الطبعة 2، 2003.

مطر، أزهار غازي. *الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر في ظل الدولة الأيوبية (567-648 هـ/1171-1250 م)*. بغداد: جامعة بغداد، رسالة دكتوراه، 2013.

المقدسي، شمس الدين أبى عبد الله محمد. *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*. ليدن: مطبعة بريل، الطبعة 2، 1906.

المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي. *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار*. بيروت: دار صادر، د.ت.

المقريزي، تقي الدين. *السلوك لمعرفة دول الملوك*. تح. محمد عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية، 1997.

المقريزي، تقي الدين. *رسائل المقريزي*. تح. رمضان البدري - أحمد مصطفى قاسم. القاهرة: دار الحديث، 1998.

هايد، ف. *تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى*. تر. أحمد رضا محمد رضا، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991.

ياغي، غزوان مصطفى. *المعالم الأثرية للحضارة الإسلامية في سورية*. الرباط: منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 2011.